الشعر المصرى فى مائة عام

على ابو النـــــصر

... — ١٨٨٠

للاستاذ محمد سيد كيلانى

بقية ما نشر فى العدد الماضى

ومدح الخديو توفيق بقصيدة مطلعها

روض الأمانى تغنينا سواجعه   فكل راج لها تصفى مباسمه
وكيف يرتاب من لاح اليقين له   فى جبهة الدهر أو من يخادعه

لم يبدأ الشاعر هذا المدح بالغزل كعادته . وإنما بدأه بذكر الأمانى والآمال التى كانت تدور بخلد الناس حينما تولى الخديو الجديد . والبيت الأول جيد المعنى والعبارة . أما البيت الثانى ففيه رد على اليائسين من الاصلاح ومعناه جيد . وقال :

وهل على من سعى يوما إلى غرض   لوم إذا منحت منه موانعه

يقول إن من شمر العزم لتحقيق بعض الأهداف وفشل فى ذلك فلا لوم عليه ولا تثريب . وهو بهذا يرد على المرتابين . والبيت جيد المعنى والتركيب . وفيه حجة مفحمة . وقال :

نحن الألى سلقتنا ألسن نطقت   فى عتبنا بعـــلام عم شائعه
قالت لقد عصفت فيكم رياح هوى   أمالكم عن سماع النصح ذائعه
تبنون من غير أس فى تصرفكم   وعكم الأمر فاتتكم مواضعه
أضغاث أحلامكم كادت تؤولها   آمالـكم بحديث ضل راقمه
حيث الخواطر والأفكار خامرها   من الحوادث ما عمت فظائعه
وجندت جندها الأيام عادية   وجردت سيف غدر صال قاطعه

هذه القصيدة هى من أجود ما نظم أبو النصر . فلم يكن الرجل فيها متكلفا ولا متصنعا، ولا كاذبا ولا متملقا ؛ ولا مرائيا ولا منافقا . وإنما كان وطنيا مخلصا يعبر عن شعور داخلى كامن فى نفسه ويترجم عن احساس دفين بين جوانحه . وقد نسى الشاعر نفسه وتجاهل مصالحه الخاصة والنعم الكثيرة التى اغدقت عليه فى أيام اسماعيل ، ونظر إلى الأمور نظرة المشفق على ما فيه خير الأمة ، المتألم لما أصاب البلاد من الكوارث والخطوب . وقد أطلق للسانه العنان فنطق فى غير خوف ولا وجل ، وانتقد فى جرأة عجيبة . والأبيات جيدة المعانى والتراكيب .

وقال :

وكل من رام تدبيرا ولاح له   جند الجرائد هالته طلائعه

هذا البيت مأخوذ من الواقع . وربما كان فيه إشارة إلى الصحف الأوربية التى أكثرت من مهاجمة الخديو اسماعيل فى أواخر أيامه . والمعنى جيد غير أنه كرر صورة واحدة فى بيتين وهى صورة الجيوش فى قوله « جندت جندها الأيام » وفى قوله « جند الجرائد » كما أنه كرر كلمة « جند » فى بيتين متتاليين . وهذا غير جيد . وقال :

وما أجبتم سؤال الحدقين بكم   كأنما القطر لا تغنى وقائعه
كم نزهتكم رباه فى مراتعها   فأصبحت وهى للرائى بلاقعه
أكرمتم الغرباء النازلين بكم   لكن فلا حكم ضاقت مزارعه

هذه أبيات جميلة لأنها صادرة عن شعور فياض بالحزن على ما أصاب البلاد • وفيها موازنة بين الرخاء الذى كان فى زمن سعيد وأوائل عهد اسماعيل وبين الضنك والبؤس الذى خيم على البلاد فى أواخر حكم اسماعيل • وفيها إشارة إلى الضرائب الباهظة التى أثقل بها كاهل الفلاح فاضطرته إلى الاستدانة من المرابين

من حيث الإعراب ويعدون الدقة فى فصل العبارات بعضها عن بعض وتقديم الصفة على الموصوف والمتعلق على ما تعلق به ، وعود الضمير على المتأخر فى اللفظ والرتبة ، والاستطراد ، والإشارة البعيدة ، والرمز الخفى ، إلى غير هذه الأمور « المصطنعة » فى التأليف العلمى .

هذا وكان الوقوف عند القديم وتمسك القائمين على التعليم فى الأزهر « بالعبارة العلمية » المقصود بها « الحفظ الأعمى لا الفهم المبصر » .

مما سبب عدم العناية بتلك التواليف الجامعة بين الورود والأشواك !! وبعد ؛ فالحياة قد تغيرت ، والعقول تفتحت ، والمواهب تعددت ؛ وليس عسيرا على أصحاب الوعى من علماء الأزهر تكوين هيئة تبرز العلم الصحيح فى أسلوب واضح ، سلس ، شائق .

بور سعيد   أحمد عبد اللطيف بدر

أو إلى الفرار وترك الأرض قفرا لا زرع فيها ولا ضرع . وفى البيت الأخير بكاء شديد على ما أصاب الفلاح المسكين . وقد أجاد الشاعر فى المقابلة بين الأجانب الذين عتموا بكل خيرات البلاد وبين الفلاحين الذين كانوا محرومين من ضروريات الحياة . والأبيات الثلاثة جيدة المعنى والأسلوب . وقد أسبغ عليها الحزن روعة وأكسبها جلالا . ومن قرأ البيت الأخير لا يسعه إلا أن ينحنى إكبارا لأبى النصر الذى كان أول شاعر فى العصر الحديث يعبر عن آلام الفلاح ويتعرض لذكر ما يعانيه من ضيق وفقر . وكان أبو النصر كثير الاختلاط بالفلاحين فرأى من آلامهم ومتاعبهم ما ظهر أثره فى هذه القصيدة فوقف فيها كما نرى موقف المدافع عن هؤلاء القوم ، المناضل عنهم ، رافعا عقيرته يطلب الاصلاح . وقال :

فمن لكم أن تروا عدلا أخاهم   يسركم بقدوم العدل طالعه

وهذا البيت تمهيد للانتقال من وصف الأحوال المحزنة التى أشرنا إليها إلى التنويه بالفرج المرتقب على يدى توفيق . وهذا التخلص جيد إلا أن أسلوب البيت ضعيف .

ثم قال :

فقلت مهلا فكم من أزمة فرجت   وأعقب الليل صبح ضاء لامعه
وإنما اليسر بعد العسر منتظر   وأحسن الصبر ما ترجى منافعه
دعوا الأراجيف فالأوهام ليس ترى   إلا خيال سراب فاض ناقعه
ولا يغرنكم منا الفتور فقد   يسابق الركب فى الفيفاء طالعه

فى هذه الأبيات رد على المرتابين فى الاصلاح واليائسين من الفرج . وقد حاول أن يقنعهم بأن الفرج آت لا محالة . وقد أجاد إذ سلك طريق الحوار لعرض آرائه وبسط آماله وأمانيه . ففى الأبيات الأولى أجرى الحديث على ألسنة المرتابين فى الاصلاح، وعظم من شأن ما كانت تئن منه البلاد . وفى الأبيات الأخيرة أجرى الحديث على لسانه فأعرب عن رجائه فى اليسر بعد العسر ، وفى الفرج بعد الشدة . ثم انتقل من هذا إلى مدح الخديو وخاطبه بهذه الأبيات :

نرجوه إنجاز إصلاح الشؤون عسى   يصفو به الملك دانيه وشاسعه
فإن آمالنا أمته جازمة   بأنها لا ترى شهما يضارعه
فكن مجيبا أبا العباس دعوتها   فباب عطفك يلقى البشر قارعه
ووال فضلك ياخير الولاة لمن   والى لأمرك يشقى من يراجعه
واستنتج الرأى اصلاحا فقد حجبت   شمس الهدى بسحاب فاض هامعه
وطهر الملك من عات ومتهم   تقوده للقمنا جهلا مطامعه

هكذا وقف أبو النصر من الخديو توفيق موقف الناصح الأمين والمرشد المخلص . ووقف كذلك موقف الوطنى الغيور على مصلحة أمته فطالب برفع المظالم وتطهير الأداة الحكومية من اللصوص والمرتشين . وهذه الأبيات من أصدق الشعر الذى قيل فى ذلك الوقت . ففيها تعبير عن رغبة شديدة كمنت فى النفوس ، وتطلعت إلى تحقيقها القلوب . وكان أبو النصر ممن ترجموا عن هذه الرغبات الكامنة ونطق بما ترجوه الأمة من الاصلاح ورفع المظالم . وختم الشاعر قصيدته الرائعة بقوله :

فإن رعيت وراعيت الحقوق فما   أولاك بالمدح يتلو الحمد بارعه

وفى هذا البيت تظهر جرأة الشاعر فى مخاطبة سيد البلاد . فهو يقول له إنك لن تكون أهلا للمدح والثناء إلا إذا قمت بما تتطلبه البلاد من الاصلاح ونشر العدل . ولا ريب فى أن الشاعر قد وفق وأجاد حينما ختم قصيدته بهذا البيت المؤثر . وهذه القصيدة وإن قيل إنها نظمت فى مدح الخديو الجديد إلا أن ظاهرة المدح فيها لا تكاد تذكر . وطغت عليها ظاهرة الالحاح فى طلب الاصلاح . وهى أروع ما نظم أبو النصر ، بل من أروع ما نظم فى ذلك الدور على الاطلاق .

وهكذا اشترك أبو النصر فى التمهيد للحركة العرابية التى ظهرت بعد وفاته .

وللشاعر طريقة خاصة فى الرثاء . فهو يبدأ بالتحدث عن الموت فيذكر أنه غاية كل حى ، وأنه السبيل الذى يسلكه كل مخلوق . ويشير إلى إستحالة الخلود . ثم يتعرض لذكر الأصاغر والأكابر الذين ماتوا . ثم ينوه بالخطوب التى تصيب الناس بفقد العظماء . ويتخلص من ذلك إلى القول بأن أجل خطب فى عصره هو وفاة فلان . ثم يشرع فى التنويه بمناقب الفقيد . فلما رثى السيد مصطفى العروسى أورد الديباجة التى أشرنا إليها ثم تخلص منها بقوله :

وأجل خطب غصت الدنيا به   فى عصرنا فقد العروسى مصطفى

ورثى أحد العلماء فسلك الطريقة عينها وتخلص بقوله :

وأجل خطب ساء أرباب النهى   فقدان من تزهو به وتفاخر

وفعل مثل هذا فى رثائه لعالم آخر وتخلص بقوله :

وأجل خطب هالنا وأهمنا أن غاب عنا ذو الفضائل أحمد

ونهج هذا النهج فى رثائه للشيخ على القوصى ، فقال :

وأجل خطب غصت الدنيا به موت الإمام السيد القوصى على
وهو ابن عبدالحق من حاز العلا شرفا وعلما وهو أستاذ ولى

فالرثاء عند أبى النصر صورة معادة وتكرار لبعض المعانى فى عبارات تكاد تكون متشابهة . وليس فى هذه المراثى ما يستحق أن نقف أمامه إذ أنها متكلفة مصطنعة . فكلما رثى شخصا ادعى أن موته كان أجل خطب أصيبت به الدنيا . وبذلك لن نخسر شيئا إذا تركنا هذا الباب من شعره .

ولأبى النصر قصائد قليلة يظهر فيها صدق الشعور والانهاب الاحساس واتقاد العاطفة . ومثال ذلك قوله وهو بالأستانة يتشوق إلى مصر :

أبدا تشوقنى لمصر ظلالها وبطوف بى مهما رحلت خيالها
ولنيلها أصبو وعذرى واضح عذبت مناهلها وراق زلالها
هى منتهى أملى وأقصى بغيتى هى قبلتى والواجب استقبالها
واطالما سرحت فيها ناظرى وحلت إلى سهولها وجبالها
وجمعت بين رياضها وحياضها وسرت إلى جنوبها وشمالها
أرض المستفيد عوارفا تسدى النوال يمينها وشمالها
بلد بها وطنى فلا أبغى بها بدلا ولو بمدت وعز وصالها
لكن رأيت عزيزها طلاب السرى منها إلى بلد يروق جمالها
ونظرت فى شأن البدور وإنها لولا تنقلها لفات كمالها
وكذا اللآلى لو ثوت فى كنزها مالاح فى تاج العروس هلالها
فرغبت فى الترحال وهى بخاطرى مطبوعة منظومة أشكالها
ودعتها وفى يقبل ثغرها ومدامعى يحكى الحيا استرسالها

هذه أبيات نقرأها فنعجب بها ونقف أمامها متأثرين بما فيها من روعة وجمال . فلم يكن الشاعر متكلفا ولا صانعا للشعر ولا ناظما جل همه البحث عن المحسنات اللفظية . وإنما كان ناطقا بما فى أعماق نفسه وفرارة فؤاده ، معبرا عن شوقه لبلاده ، مترجما عن مبلغ تعلقه بوطنه تعلقا جعله يتخذه قبلة يولى وجهه إليها أينما سار . ولم تلهه عن بلاده مظاهر الجمال والروعة التى يشاهدها كل من رحل إلى الأستانة ؛ بل إن شوقه لبلاده وما فيها من رياض وحياض وسهول وجبال ونسيم عليل قد سيطر على ذهنه وطغى على كل شىء أمامه فلم يعد يرى غير مصر إليها يصبو ويحن ، فهى كما قال منتهى أمله وأقصى بغيته . وفى كل بيت من هذه الأبيات نلمس قوة فى التعبير . ومثال ذلك قوله : ـ أبدا ـ تشوقنى لمصر ظلالها ، ويطوف بى ـ مهما ـ رحلت خيالها ، هى ـ منتهى ـ أملى ، ـ وأقصى ـ غايتى ، هى ـ قبلتى ـ ، ـ فلا أبغى بها بدلا ولو بعدت ـ . وأنظر إلى البيت الأخير وهو :

ودعتها وفى يقبل ثغرها ومدامعى يحكى الحيا استرسالها

فإنك لا شك متأثر بما فيه من روعة ، تتخيل الشاعر وقد هوى على أرض الاسكندرية يقبلها ويبكى بكاء شديدا لهذا الفراق المؤلم عليه وتبكى لبكائه .

وكان أبو النصر مغرما ببعض أنواع البديع يحشدها فى قصائده حشدا ، ومثال ذلك قوله :

لى فى ربا الشوق انتهام وانجاد إلى الأحبة إن ضنوا وإن جادوا

وفيه طباق بين « انتهام » و « انجاد » وبين « ضنوا » و « جادوا » وفيه جناس بين « انجاد » و « جادوا » .

ومن تلاعبه بالألفاظ قوله وهو بحضرة شيخ الاسلام فى تركيا :

وكذا ترى مصر السعيدة جنة ونحسبها دون البلاد هى العليا
فلما رأت داو الخلافة عيننا علمنا يقينا أنها لهى الدنيا

فى كلمة « الدنيا » تورية لطيفة تدل على البراعة والاقتدار فى الصنعة .

وللرجل شعر ينحط فى أسلوبه إلى العامية ، ومثال ذلك قوله .

سده واجب أكيد وإنى أيتمنى فى مسافة الشهر سده

وقوله :

ومنى عليكم كل يوم تحية وسائر أحبابى الكرام ذوى المجد
كذا جملة الاخوان شرقا ومغربا متى سألوا عنى ولو أخلفوا ودى

وهذا كله من تعابير الدهماء .

وحاول صاحبنا أن ينظم فى باب الحكم . وله قصيدة قلد فيها صالح بن عبد القدوس فأخفق إخفاقا تاما . ومن هذه القصيدة قوله :

حسن الخليفة للخليفة يوجب حسن الرضا عنهم ونعم الموجب
والعلم يرفع قدر من عملوا به والعاملون بغير علم كذبوا
والمدعى ماليس فيه جهالة لا شك عند الامتحان يكذب

وهذا كلام خلو من المعنى . وفضلا عن ذلك فإن عبارة البيت الأول فى منتهى الضعف وقد كرر القافية فى قوله